الفروق السيكلوجية
بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

ذكرت فى المقالين السابقين آراء بعض الفلاسفة والمربين ومعلمى البيان فى الفروق السيكلوجية ، وأشرت إلى أنهم طبقوا نظرية الفروق السيكلوجية فى الحياة العملية . فقد بنى أفلاطون نظام التربية فى المدينة الفاضلة على هذه النظرية ، كما وجه فيتو ريتو دافلترى تلاميذه إلى الدراسات التى يصلحون لها بطبعهم ، وأوصى روسو أن تترك لأميل حرية اختياره العمل الذى يتفق وميوله الفطرية

غير أن هؤلاء الفلاسفة والمربين قد استنبطوا آراءهم استنباطاً من الملاحظة العامة لتصرفات الأفراد وسلوكهم ، فلم تكن إذاً هذه الآراء علمية مبنية على التجربة والبحث الاستقرائى ، وذلك طبيعى لأن علم النفس ما أصبح علماً مستقلاً بالمعنى العلمى إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأعنى بذلك أنه اتبع فى دراسة موضوعاته التجربة والإحصاء والطريقة الاستنباطية Inductive method ذات الخطوات الأربع :

١ — ملاحظة الظواهر المختلفة للنوع الواحد فى موضوع البحث

٢ — جمع المتشابه من هذه الظواهر

٣ — اقتراح بعض الفروض لشرح هذه الظواهر وتعليلها

٤ — إجراء بعض التجارب لإثبات صحة الفرض أو الفروض المقترحة

ولم يعتن علماء النفس بموضوع الفروق السيكلوجية إلا فى الربع الأخير من القرن الماضى . على أن دراسة الاختلافات البشرية بين الأفراد دراسة منظمة ، وقياس هذه الاختلافات ، وتحديد آثارها لم تنشط إلا فى القرن العشرين

ويعتبر فرانسيس[1] جولتن أول من بحث موضوع الفروق الفردية بطريقة منظمة Systematic مبنية على الإحصاء . ومن الحق أن نذكر أن دارون[1] هو الذى مهد السبيل له — ولغيره ممن عنوا بموضوع الفروق السيكلوجية الفردية — بنظرياته البيولوجية كنظرية النشوء والارتقاء ، ونظرية الوراثة فى النبات والحيوان . وقد عاصر جولتن دارون وصدق بنظرياته . وكان دارون ورائى المذهب ، وفى هذا يقول : « إن التربية أو البيئة لا تؤثر إلا قليلاً فى عقل الأفراد ومواهبهم ، وأغلب صفات الأفراد وخواصهم وُلِدَت معهم »

اعتمد جولتن على نظريات دارون فى بحوثه وبخاصة فى علم إصلاح النسل البشرى Eugenics الذى لم يسبق جولتن أحد إلى الكتابة فيه . فهو أول من وضعه . ويعرف هذا العلم « بأنه دراسة العوامل الاجتماعية والبيئية التى يمكن ضبطها ، والتى تؤثر بالإيجاب أو السلب فى تحسين الصفات الجسمية أو العقلية للأجيال البشرية المقبلة » وتشمل هذه الدراسة دراسة الفروق السيكلوجية الموروثة ، وأثر البيئة فى هذه الفروق . ويمكن إجمال رأى جولتن فى أسباب هذه الفروق فى عبارته « لقد أصبح من المؤكد أن الإنسان إنما هو إنسان نتيجة لمؤثرين : أولاً لما به من الصفات الأبوية والجنسية الموروثة ، وثانياً لما تحدثه فيه البيئة التى يعيش فيها »

وقد وقف جولتن حياته وجهوده على دراسة الفروق الفردية بين أشخاص بذواتهم ، وأسرات بذاتها ، وهو يقول فى مقدمة كتابه المسمى « بحوث فى القوة البشرية[2] » Inquirissinto Human Faculty ما يأتى :

« كانت غايتى فيما قمت به من بحوث أن أدرس القوى الوراثية المختلفة لأفراد مختلفين ، وكذلك أدرس الخصائص المختلفة لأسرات مختلفات وشعوب مختلفة ، وأن أعرف إلى أى حد يمكن أن نُعوِّض عن النقص الوراثى بعناصر تربوية ، وقد فكرت

---

(١) Francis Galton ولد سنة ١٨٢٢ ومات سنة ١٩١١ صاحب البحوث القيمة والمؤلفات المشهورة فى علم طبائع البشر (Anthropology) وفى علم إصلاح النسل البشرى Eugenics

(١) Charles Robert Darwin ولد سنة ١٨٠٩ ومات سنة ١٨٨٢ وهو أعرف من أن يعرف ، ونظرياته فى طبيعة الانسان ونشوئه شغلت عقول المفكرين فى القرن التاسع عشر ، ولا زالت موضع جدال وبحث

(٢) طبع لأول مرة سنة ١٨٨٣ م

فى أن من الواجب أن نقوم بهذا التعويض بقدر ما تسمح جهودنا وظروفنا . وبهذه الطريقة يمكننا أن نعجل إصلاح الجنس البشرى وتطوره حتى لا يقاسى من المتاعب ما يقاسى لو تُرك وشأنه يسير فى تطوره الطبيعى »

وكان جولتن قد نشر سنة ١٨٦٩ كتابه « النبوغ الوراثى » Hereditary Genius وبه كان أول عالم حاول دراسة أثر الوراثة فى نبوغ الأفراد دراسة منظمة . وقد اتخذ فى كتابه هذا منهجين علميين للبحث : أحدهما هو دراسة تاريخ الأسرة Family History Method ، والثانى طريق التلازم Correlational method . درس فى كتابه هذا بعناية حياة أفراد ٩٧٧ أسرة اشتهرت كل واحدة منها بوجود نابغة فيها فى ناحية : فى الشعر أو الكتابة أو السياسة أو الخطابة أو العلوم أو الفلسفة الخ ، كما درس أيضاً نوع المهن التى احترفها كل واحد من هؤلاء الأفراد ، وطبيعة هذه المهن ، ومقدار إنتاج الفرد فى مهنته . ثم عالج ما وصل إليه من معلومات بطريقة إحصائية لا حاجة لذكرها هنا . ولكنه استخلص من هذه الدراسات أن إمكانية وراثة النبوغ فى الأسرة التى بها نابغة تبلغ ١٣٤ مثلاً لإمكانية وراثة النبوغ فى أسرة عادية . ومن هذه النتيجة يرى أن المواهب العقلية عند الأفراد موروثة ، وأن النبوغ الذى نجده بين عدد كبير من أفراد بعض الأسرات[1] لا يمكن أن يعزى إلى التربية والبيئة ، بل لا بد أن يكون نتيجة الوراثة . ولا شك أن القارئ يلاحظ مما سقناه عن جولتن أنه من الأنصار المتعصبين لمذهب الوراثة ، وأنه ينسب إليها كل الفروق السيكلوجية بين الأفراد . ومما يؤثر عنه فى كتابه (النبوغ الوراثى) قوله : « إن الأفراد الذين ميزوا أنفسهم فى الحياة الاجتماعية لا يمكن أن يكونوا قد وصلوا إلى مراكزهم الممتازة إلا بالمواهب الطبيعية »

وليست قيمة أبحاث جولتن محصورة فى النتائج التى وصل إليها ، بل إن الطريقة العلمية التى اتبعها فى أبحاثه تعتبر بنت[2] أفكاره ، فقد استخدم الإحصاء والتحليل العلمى فى طرق بحثه . وكانت نتائجه العلمية مبنية دائماً على عمليات رياضية ومقاييس حسابية دقيقة . وقد اقتدى به فى طرقه العلمية هذه خلفه الأستاذ كارل بيرسن رئيس معمل جولتن بلندن الآن ، والأستاذ تشارلس سبيرمان السيكلوجى الشهير

كان لجولتن أثر محسوس فى إيقاظ الرغبة فى بحث الفروق السيكلوجية بين الأفراد ، كما كان ذا نفوذ علمى كبير فى توجيه علم النفس التجريبى ومقاييس الذكاء . وذلك بوساطة الاختبارات التى ابتكرها لقياس قوة الخيال ودقة الإدراك الحسى . ابتكر جولتن مقياساً به تعرف دقة تمييز الأفراد للأثقال المختلفة اختلافاً بسيطاً ، كما ابتكر الصفارة المعروفة « بصفارة جولتن » لقياس قدرة الأفراد المختلفة على سماع النغم العالى وتمييزه[1] ووضع عدداً من الاختبارات لقياس قوة الشم والذوق واللمس وغيرها من الحواس

وكانت هذه المحاولات من جانبه لمعرفة الفروق الحسية بين الأفراد ترمى إلى معرفة ما إذا كانت هناك علاقة تلازمية Correlation بين الذكاء وبين قوة الإدراك الحسى ودقته فى نفس الفرد . ويؤيد ما نقول أنه كان دائماً يختار للبحث والقياس أفراداً بينهم تفاوت كبير فى الذكاء . كان يختار عبقريا Genius وضعيف العقل Feeble minded ثم يجرى عليهما تجاربه فى الإدراك الحسى ليعرف : هل هناك تلازم بين قوة الإدراك الحسى ودقته فى الفرد وبين ذكائه أو غبائه

غير أنه لسوء الحظ وبالرغم من مجهوده العظيم ومحاولاته الكثيرة لم يجد تلازماً يذكر بين ذكاء الفرد وقوة إدراكه الحسى . وبالرغم من هذا نجد أن بحوثه وطرقه العلمية كان لها أثر عظيم فى كل ما أُجرى من تجارب سيكلوجية حتى نهاية القرن التاسع عشر حين ظهرت مقاييس الذكاء التى وضعها السيكلوجى الفرنسى الشهير ألفريد بينيه A. Binet

* * *

(١) كأسرة عبد الرازق وأسرة أباظة وأسرة بركات مثلا

(٢) استعملت عبارة « بنت أفكاره » قاصداً ما يسمى بالفرنسية والانجليزية Original ولم أعثر بعد على كلمة فى العربية تقابل اللفظة الفرنسية فهل من مقترح ؟ (الرسالة) : لعل كلمة (الأصالة) ومشتقاتها تغنى فى ذلك

(١) تسمى بالانجليزية Galton Whistle

يقسم جولتن الأفراد إلى أنواع وفقاً لقوة خيالهم الحسى . فعنده النوع الإبصارى Visualiser ، وهو الذى يغلب عليه الخيال البصرى ، والنوع السمعى Audile ، وهو الذى يغلب عنده الخيال السمعى ، والنوع الحركى Motile وهو الذى يغلب عنده الخيال الحركى الخ . فالنوع الإبصارى مثلاً يفكر باستحضار الأشياء المرئية ، بينما السمعى يستحضر الصور الصوتية ، على حين أن الشَّمِّىّ يستحضر الصور الشَّمِّيّة الخ ، ولكى يعرف أن فرداً يتبع للنوع الإبصارى أو السمعى أو الشَّمِّىّ مثلاً كان يجرى عليه تجربة كالآتية :

تصور أنك جالس فى الصباح على المائدة لتناول طعام الإفطار . تخيل بدقة المائدة التى أنت جالس عليها . هل الصورة الخيالية المرئية واضحة أو غامضة ؟ هل ألوان الأطباق والفناجين والأكواب والخبز واضحة أو غامضة ؟ هل تستطيع أن ترى بمخيلتك جانبى الكرة فى وقت واحد ؟ هل تستطيع أن تتخيل بوضوح تقاطيع الوجه لأقرب قريب لك (زوج أو أب أو أم الخ) ؟ هل تسمع بمخيلتك صوت السيارة تمر تحت نافذة منزلك ؟ هل يمكنك أن تتخيل حركة الفم والأسنان واللسان حينما تنطق بكلمة « تجّب » أو كلمة « وطن » ؟ هل يمكنك أن تسمع بمخيلتك سنسنة العصافير فوق الشجرة ؟ هل تستطيع أن تشم بمخيلتك رائحة البطيخ أو القهوة أو البرتقال ؟ هل تستطيع أن تتخيل طعم الشكولاتة أو الليمون أو الكمثرة ؟

وهكذا وضع جولتن سلسلة من الأسئلة فى أنواع الخيال الحسى المختلف ، وقسم الأفراد إلى الأنواع السابقة كما قسم النوع إلى درجات تختلف من « قوى جداً » إلى « ضعيف جداً » باختلاف قوة الفرد على التخيل

(يتبع الرضا) عبد العزيز عبد المجيد

شركة مصر للملاحة البحرية

ببواخرها الفاخرة وفنادقها الأنيقة

تسير بكم على بركة الله إلى بيت الله الحرام

وبنك مصر يؤدى لكم جميع الخدمات المصرفية ويتولى عنكم دفع الرسوم

فخذوا أهبتكم للحج هذا العام

جميع الاستعلامات من :

شركة مصر للملاحة البحرية وفروعها